تقديم

الحاجة إلى نظرة للوراء تبدو اليوم ضرورية لتقييم حصاد مائة سنة من البذر...

والنقد الذاتي داخل في معنى المحاسبة المأمور بها شرعاً.. لذلك كانت هذه الدراسة الجريئة الرائدة التي وضعها المفكّر الإسلامي الجزائري محمد جربوعة في إطار خطة بنّاءة مدروسة متكاملة للمركز العالمي للدراسات الاستارتيجية.

والدراسة لا تخرج عن كونها مصارحة واجبة لتدارك الأخطاء في الطريق، لا لترك الطريق.. وبقدر ما يكون الأمر خطيراً، بقدر ما يكون السكوت والتستر جريمة، لذلك أجمع الكثير من العلماء والمفكرين والدارسين ممن عُرضتْ عليهم هذه الدراسة قبل نشرها أنها تمثل مشرط المرحلة الواجب، والمشرط هنا رحمة رغم ما يسببه من الألم.

وتبقى الحقيقة في مغالبة هوى النفوس والالتزام بجادة الصواب المنضبطة بالشرع...

الرئيس ـ المدير العام

سعيد بن صالح الغامدي

obeikandi.com

obeikandl.com

مقدمة

«موت الآلهة» فكرة لها وجودها القوي في الثقافة الإنسانية، وعندما تموت الآلهة تعمّ الفوضى... ويجد الناس أنفسهم خارج الأطر الدينية التي هي نتيجة العلاقة العمودية التي كانت تربط البشر بتلك الآلهة.

وفي أوقات الضعف والخوف يلجأ الناس إلى قوة أخرى أكبر يطلبون مددها، يقول سبينوزا في «رسالة اللاهوت والساسة»: ولما كانوا في وقت الخطر لا يجدون من أنفسهم عوناً، فإنهم يطلبون العون الإلهي بصلواتهم ودموعهم»[1].

ويرى أليكس ميكشيللي أن «موت الآلهة» يعني انهيار الأصول الدينية، ولموت الآلهة أسباب كثيرة منها تمرد أتباعها وعبّادها، عليها، فحين يطغى إحساس هؤلاء بأنفسهم وقوتهم يكفرون بتلك الآلهة، وهذا ما سمّاه ميكشيللي بنمو النزعة الفردية.. وطبعاً فإن تضخم الأرضي يكون في أحيان كثيرة على حساب السماوي، وحين تأخذ العلاقة بين الأرض والسماء طابع التدافع والإلغاء تموت الحقيقة، وهنا، في هذه النقطة يحتاج الناس إلى ميزان دقيق يقيسون به علاقتهم بالسماء، فقد يأخذهم الظن إلى أنهم يحسنون عملاً، في الوقت الذي هم فيه من ألدّ أعداء ما جاء به الرسل..

١ ـ رسالة في اللاهوت والسياسة. لسبينوزا ص ١١٢، ت. د حسن حنفي. مراجعة. د. فؤاد زكريا. دار الطليعة ـ بيروت. ط ٢ آذار مارس ١٩٨١م

obeikandi.com

﴿قل هلْ ننبئكم بالأخسرين أعمالاً الذين ضلَّ سعيهم في الحياة الدنيا، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا﴾ (الكهف).

إن الحرية في الفهم والتطبيق والإسقاط قد تكون الإفساد الحقيقي لما جاء للإصلاح.. لذلك كان من الواجب على الدعاة والمجاهدين أن لا يكون سعيهم خارج إطار النموذج والمثال.. والمثال هنا هو «السيرة النبوية الشريفة» وسيرة الخلفاء الراشدين، لذلك يكون إلغاء المرجعية التاريخية في كيفية الإسقاط إلغاء للطريقة البشرية لتمثُّل وتطبيق ما هو إلهي من الأوامر والنواهي.

ولعل الكثير من الانتكاسات التي وقعت فيها مشاريع أفراد وجماعات إسلامية عبر التاريخ الممتد من آخر عصر الخلفاء الراشدين إلى اليوم، كانت نتيجة للخروج عن الجادة في ما نسميه هنا البرنامج.

إن هذه المشاريع كانت لا تخرج في مجموعها عن قداسة المشروع الإسلامي الذي لا يختلف اثنان ولا يتناطح عنزان في كونه من عند الله تعالى... غير أن كيفية السعي إلى تطبيق هذا المقدس والتي هي سعي بشري كانت تؤْتى من نقاط الضعف البشري، لا من ناحية كونها تحمل مقدساً تريد الانتصار له.

وفكرة موت الإله، فكرة مرفوضة في الإسلام، ومن صفات الله تعالى «الحي القيوم» لذلك لا توجد هوامش غير شرعية لا يتواجد فيها الإله ويترك أمرها للبشر يفعلون فيها ما يشاؤون، من هنا يكون لزاماً أن نفهم أن «البرنامج» وإن كان سعياً بشرياً إلا أنه لا يجب أن يخرج عن الشرع، والالتزام بالشرع هنا هو معرفة الطريقة المثلى لإسقاط المُنَزّل على الواقع المعيشي، وهنا أيضاً نشدد على أنه ليس لأي فرد أو جماعة أن ينظروا للأمر على أنه دون ضوابط، وأنهم أحرار في فعل ما يشاؤون...

فحتى لو صدقت النيات فإن الأقدام قد تزل أو تتنكب الصراط المستقيم..

لهذا يتوجب الرجوع إلى السيرة، والتي هي النموذج المثالي التطبيقي للمشروع، أو لنقل بمعنى آخر، أنها البرنامج المثالي في ذلك.

إن البعد عن تمثل السيرة يحدُث في كثير من الأحيان عندما تضعف العقول عن فهم السيرة النبوية فهماً صحيحاً.

لقد قرأت الكثير من كتب السيرة، فوجدتها تتحدث عن حياة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في مكة والمدينة، وقد تعطي بعض الخلاصات التوجيهية، أو الدروس، لكنها لا تُخرج السيرة عن نطاق الـ (٢٣) سنة زمنياً، كما لا تُخرجها جغرافياً عن مكة والمدينة وما حولهما.

لذلك نشأت عندي فكرة تعميم السيرة العطرة وإخراجها من محليتها الزمانية والمكانية، وفتحها على الزمان والمكان بلا استثناء... وانطلاقاً من البديهية الكونية التي أثبتها القرآن: «وتلك الأيام نداولها بين الناس» فإن الوقائع البشرية متناهية، وقد تأخذ الواقعة الواحدة ألف شكل وصورة، لكنها في الأخير تنتهي إلى أصل واحد.

وهنا أحب أن أؤكد من خلال القراءة المتأنية والعميقة للسيرة العطرة أنها مجموعة كاملة لأصول الوقائع في مراحل الضعف والقوة، السلم والحرب.

ولعل أكبر وأخطر تداخل يحدث في برامج «الجماعات الإسلامية» اليوم، هو ما يكون بين متطلبات مرحلة الضعف (الواقعية) ومتطلبات مرحلة القوة (الحلم)، أو لنقل بمعنى آخر التداخل بين ما يتطلبه واقع دار الأرقم، وبين ما يتطلبه واقع فتح (مكة)... والكثير من الجماعات

الإسلامية لا تعرف أين هي من السيرة بالضبط، ولذلك يصعب عليها اختيار الأصوب للمرحلة.. فهل هي ضعيفة يجب أن تتخفى في دار الأرقم متهامسة؟ أم أنها قوية ويجب عليها أن ترفع التحدي؟!

وإلى اليوم تقف هذه الجماعات متباينة بين دخول الانتخابات، والتربية، وحمْل السلاح، وغير ذلك من البرامج.

إن الإنسان الذي لا يعرف نفسه أين هو وما هو، لا يمكن أن يتحدث عن المستقبل.. لنفترض أن إنساناً لا يعرف كم وزنه وتراه يقول سألتزم ببرنامج حمية، وسأنزل وزني إلى (٧٠) كيلو غراماً، وقد يكون وزنه (٦٥) كيلوغراماً فقط، لكن لكونه يجهل كم هو وزنه فإنه يبقى يظن أنه سينقص وزنه مستقبلاً.

إن تحديد المرحلة واقعاً، هو الذي يجعل الجماعة تحسن الإستناد إلى ذات المرحلة في السيرة النبوية.

إن الهيلمانات كأوهام الضخامة التي تعيش فيها الكثير من الجماعات، تضيع عليها الكثير من الحقائق، فهي كمن وزنه عشرون كيلوغراماً وهو يظن ويدعي أن وزنه قنطار كامل، والميزان وحده الذي يكشف عادة هذه الادعاءات.. ميزان الواقع.. وكثيراً ما كانت تلك الجماعات تكتشف وزنها الحقيقي بعد فوات الأوان، وحينها تدرك أن المرحلة التي كان محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو نبي، يختبئ فيها في غار مع صاحبه هي ذاتها المرحلة التي خرجت فيها هي تعلن الحرب على الجميع مكشوفة الصدر والظهر... ولات حين مندم.

إن الله لا يموت، ووحدها آلهة الكذب والخداع التي تموت، لذلك

فإن المسلم لا يفتقد إلى ربه في أي مرحلة، فهو معه، لذلك عيه هو أن يكون مع الله..

إن معنى أن الله معك، لا يعني ذلك أنك مع الله، فالله مع عباده حتى في ساعة خطئهم، وهي الساعة التي قد يكون فيها العباد مع أهوائهم ونزواتهم، لا مع ربهم.. لذلك يعد الخروج عن هامش «الوجود مع الله» خروجاً عن جادة الصواب، وفي هذا الهامش تحدث الانتكاسات، وهذا المعنى هو الذي أشارت إليه الآية الكريمة «وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون»

فبمنظور وجوب العبادة التي تقتن الحياة كلها بجوانبها المختلفة يكون الله مع عباده دائماً، ومن منظور تنكب العباد لبعض متطلبات العبادة واتّباعهم لغير ما أراده الله يخرجون عن كونهم مع الله.

إن الدواء دواء.. لكنه ينقلب سماً إذا أُخذ بطريقة خطأ، والمشكلة آنذاك ليست فيه، بل في طريقة استعماله... لذلك فإن الإسلام هو الحل، والشفاء، والنور، والهدى والسعادة: ﴿فمن اتبع هداي فلا يضلّ ولا يشقى﴾.

لكن تشويه هذا الحل سيقلبه جزءا من الأزمة التي تعيشها الأمة.. ويأتي تأزيم الحل من شائبة فيه متعلقة بتطبيق البشر له، ذلك لأن التطبيق تلتقي فيه النظرية والفعل، النص والإسقاط، وحين يكون الإسقاط خاطئاً فإن النص يكون في غير محله، تماماً كما يعطى دواء القلب لمريض الكبد.. فإما أنه لا يفيده فيكون كشارب ماء، أو يأتي بنتائج عكسية فيزيد حاله سوءًا، وألمه شدة..

لقد قضت الجماعات الإسلامية الحديثة قرابة قرنٍ في محاولة

obeikandi.com

الإصلاح، والنتيجة واضحة في الواقع المعيش... إن تأمل حصاد مائة سنة من العمل والتضحيات سيجعلنا أمام سؤال هام، وهو:

هل تتناسب النتائج المتحققة طوال مائة سنة مع التضحيات الكبرى التي قدمت؟!!

ذلك وحده السؤال الذي نستطيع من خلاله اكتشاف الحجم الحقيقي لما تحقق... وبدون أن ننسب النتيجة إلى الجهد فإننا سنُضيّع كل موازين التقييم والتقدير.. ولا شك أن ملاحظة واقع هذه الجماعات التي تبنت الحل تشير إلى أن ما تحقق في إطار المجال الإصلاحي والنهضوي الذي استهدفته خلال عشرة عقود، وهو المجتمع العربي والإسلامي، لا يمكن أن يكون ميزاناً حقيقياً، والميزان الحقيقي هو ملاحظة تطور هذه الجماعات ذاتها لا مدعوّيها... وللأسف فإن هذه الجماعات ذاتها تمثل في كثير من جوانبها، الأزمة لا الحل... فلمائة سنة، ظلَّ فكرها قاصراً، وتشتتها رهيباً، وضعفها شديداً... ثم ازدادت امتزاجاً بالواقع حتى ألِفَها المجتمع ولم يعدْ لها من صدى فيه، بل صارت هي في حد ذاتها بحاجة إلى إصلاح، وإلى نهضة داخلية..

غير أن الأمل باقٍ في الإسلام، لذلك يكون الترشيد هو الواجب، والترشيد لا يكون إلا باكتشاف القصور عبر النقد الذاتي البنّاء، والسعي في تداركه.